الفصل الثالث

إنصاف الصابئة المندائيين
من قِبَل الباحثين المستشرقين

obeikan.com

obeikan.com

الباحث عندما يبحث ويطَّلع على ما كتبه الكُتَّاب والمؤرخون العرب والمسلمون وحتى المعاصرين منهم، مرَّوا على هذه الطائفة مرور الكرام، تجد أفكارهم وآراءهم سطحية غير معمقة منقولة من الكُتَّاب والمؤرخين الذين سبقوهم، أما الباحثون والمستشرقون الأجانب فقد تعمقوا في بحوثهم ودراساتهم وعايشوهم وتعلموا لغتهم المندائية الآرامية، وقرأوا كتبهم الدينية، واحتكوا بهم وخاصةً برجال دينهم، واطلعوا عن قرب على إجراء الطقوس والشعائر الدينية والحياة الاجتماعية، وتمكنوا من حل بعض الرموز والنقوش والمخطوطات الأثرية والقحوف من الفخاريات القديمة، وترجموها إلى لغات حيَّة مثل الألمانية والروسية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية، ولقد تمكنوا من حل كثير من الرموز وربط عدد من الحلقات المفقودة، وتصحيح بعض المفاهيم، فهناك عدد من الباحثين الأجانب رجالاً ونساءً لهم آراء مفيدة وأفكار قيمة، فهؤلاء المتطوعون قد قدَّموا جهدًا عالميًا ووقتًا ثمينًا وأسفارًا مضنية.

- ليدزبارسكي

عالم ألماني فذ وبروفيسور مشهور قام بعملٍ جليلٍ بترجمة الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (الكنزا ربا) من المندائية مباشرةً إلى الألمانية، ويعتبر من العلماء الأوائل الذين أقدموا على هذه الترجمة، ونجح فيها رغم أنه ترك فراغات كثيرة، ربما يكون بسبب عدم فهمه النص أو لوجود كلمات سومرية أو بابلية، ولكن مع هذا يعتبر عمله رائعًا وكبيرًا، وله آراء وأفكار محترمة وتحليلات وتفسيرات تفوق بها على أقرانه من الباحثين.

- نودلكه:

عالم ألماني وأستاذ أكاديمي تخرج على يد رهط من الأساتذة والباحثين، وهو من المهتمين بدين الصابئة المندائيين، وله آراء وأفكار ممتازة عنهم، إذ يقول في أحد بحوثه القيمة:

(إن كلمة صابئة مشتقة من صب الماء؛ لكونهم يصطبغون بالماء الجاري، وإن المسيحيين أخذوا منهم التعميد بالماء؛ لأن نبي الله يحيى بن زكريا عمَّد السيد المسيح بأمرٍ من رب العالمين، وإن تسميتهم بالصابئة جاءت من الأقوام المجاورة لهم الذين يتكلمون الآرامية، فسموهم بهذه التسمية؛ لأنهم يكثرون من الاغتسال بالماء، وكلمة صبأ أو مصبتا أو صابئة تعني "المغتسلة" باللغة الآرامية).

▪ تعقيب:

يعتمد كثير من الباحثين الذين يجيدون اللغة الألمانية على ترجمة ليدز بارسكي لكتاب (الكنزا ربا)، ويعتبرونه مرجعًا أساسيًا، وفي بداية الأمر عام ١٩٩٨ عندما اهتم عدد من أبناء الطائفة بالترجمة اعتمدوا بدايةً على ترجمة ليدز بارسكي فنقلوا من الألمانية إلى العربية، ولكن لاحظنا نحن النخبة المشرفة على الترجمة، أن ليدز بارسكي قد ابتعد قليلاً عن بعض المفاهيم الدقيقة في جوهر الدين المندائي، ثم جاءت ترجمة عن ترجمة فابتعدت أكثر، بمعنى حصل انحراف في بعض النصوص، ولم يوفق المترجمون بنقلها بالدقة والمعنى المركز الصحيح؛ ولهذا قررت اللجنة يساندها عدد كبير من المندائيين المهتمين بالشأن المندائي ضرورة الترجمة المباشرة من اللغة المندائية إلى اللغة العربية لتكون الترجمة أمينة ودقيقة وصادقة؛ ولهذا شكلت عدة لجان لإنجاز هذا العمل الكبير، وقد تحقق ذلك والآن نستطيع القول إنه أصبح في كل بيت مندائي كتاب (الكنز العظيم).

أما عن البروفيسور نودلكه فهو يركز على كلمة صابئة وأنها من الفعل الآرامي صبأ وتعني المغتسلة بالماء.

المطلع على الدين المندائي والكتب الدينية من المندائيين لا يجد ذكرًا في كتبهم لكلمة صابئين أو صابئة، وكما يفسرها البعض أنها من الفعل صبأ العربي أو الآرامي، أو من كلمة صابي بن شيت، أو أنها تحوير لكلمة "الصابغون" وقد دُمجت الغين إلى همزة فأصبحت "صابئون"، وغير ذلك من التفسيرات.

إنها تسمية عربية سبقت الإسلام، حتى أن أهل قريش أطلقوا على النبي محمد "ص" بالصابي وقولهم (صبئت يا محمد) أي تركت دين أجدادك واتبعت دينًا جديدًا.

والحقيقة أنهم المندائيون أي المعرفيون (أهل المعرفة) ومعبدهم يسمونه المندي أي بيت المعرفة، وأن كلمة الصابئة فُرِضَت عليهم من قِبَل الأقوام المجاورة، وخاصةً بعد أن وردت في القرآن الكريم في ثلاث سور (البقرة والمائدة والحج) فأغلب الظن احتموا بها ليكونوا من أهل الذمة ورضوا إكراهًا بدفع الجزية للمسلمين؛ لأنهم عبر تاريخهم الطويل لم يؤسسوا دولة أو إمارة وإنما كانوا دائمًا يحتمون بظل دين أسس دولة قوية، وهذا ما كان، وأضافوا كلمة الصابئين إلى كلمة المندائيين فعُرِفوا بالصابئة المندائيين (الصابغون المعرفيون)، والآن هناك مقترحات من عدد من مثقفي أبناء الطائفة والمختصين يركزون على كلمة (مندائيون) فقط والمسألة مسألة وقت، خاصةً بعد عملية الهجرة الواسعة إلى بلدان الغرب وأستراليا ونيوزيلندا وأمريكا، وتمتعهم بفسحة من الحرية والديمقراطية.

- الليدي دراور:

من الباحثين البارزين في الديانة المندائية في العصر الحديث، ولكونها عاشت مع المندائيين لمدة ربع قرن وتعلمت اللغة المندائية، ومنذ عام ١٩٢٣ فرغت نفسها وهي في عمر الزهور لدراسة المجتمع المندائي وفهم دنيتهم ودراسة شعائرهم وطقوسهم ومعايشتهم ميدانيًا ومرافقة رجال الدين المشهورين، فلقد ضحت هذه الباحثة بوقتها وجهدها ومالها، مما مكنها من تقديم بحوث قيمة أغنت المكتبة العالمية باللغة الإنجليزية، وتُرجِمَت قسم من مؤلفاتها إلى اللغة العربية من قِبَل الباحثين نعيم بدوي وغضبان الرومي رحمهما الله.

لقد كانت الباحثة ملمة باللغة المندائية واللغة العربية مما ساعدها على فهم كثير من الأمور من رجال الدين مباشرةً، ودوَّنت ما شاهدته واقعيًا من ممارسات للشعائر والطقوس المندائية وهي تشاهد بعينيها وتسمع بأذنيها وتستفسر عن دقائق الأمور، ولقد قامت بترجمة الكثير من المخطوطات، وتدوين كل ما شرحه لها رجال الدين.

لقد ترجمت الباحثة وألفت اثني عشر كتابًا، وإن أهم ما قالته الباحثة في الصابئة المندائيين:

(إن جوهر الدين المندائي هو عبارة عن قوانين الحياة القديمة، فالحياة العظمى عندهم مقدسة، ورمز الحياة العظمى هو الماء الحي الجاري، وهذا أمر طبيعي لأقوام عاشت على ضفاف الأنهار في منطقة المياه البهية، فكل شيء في بلاد ما بين النهرين يلتصق بالماء، حياة البشر والحيوان والنبات.

ولهذا تجد أن الطقوس الرئيسية عندهم الاغتسال بالماء الجاري (أي الصباغة)، أما القوة الأساسية الثانية فهي تعظيم النور (ملك دنهورا) والملائكة النورانيين الذين يمنحون بأمر من ملك دنهورا النور والصحة والقوة والفضيلة والعدل.

كما ينص الدستور الأخلاقي لدى الصابئة المندائيين على العناية المركزة بالنظافة وصحة الجسم والطاعة لكل الطقوس التي تفرضها كتبهم الدينية، كما

يعطون أهمية بالغة لسلامة العقل والضمير وإطاعة وصايا وتعليمات الحي العظيم.

والأمر الجوهري الثالث عندهم هو الاعتقاد بخلود الروح، ويقصد هنا بالروح بمعنى النشماثا (الروح + النفس).

وأردفت الباحثة أن العرب تسميهم بالصابئة وهو يسمون أنفسهم بالمندائيين، ويعتبرهم المسلمون من أهل الكتاب وهم يقولون إن لهم صلة روحية وثيقة بالمسيحية؛ لذا يسميهم البعض بمسيحيي القديس يوحنا المعمدان، إنهم يعيشون ضمن المجتمع الإنساني إخوة أعزاء متحابين لكنهم لا يتزاوجون من غيرهم من الأديان إلا فيما ندر.

إنهم قوم يلازمون الأنهار ولا يستطيعون أن يعيشوا بعيدًا عن الماء الجاري؛ لأن الاغتسال والتطهير شيء مهم في حياتهم، ومن عاداتهم وطباعهم الحرص كل الحرص على أسرار دينهم.

والصابئة مثل المسيحيين والمسلمين يؤمنون بالله الواحد، لكن هيي قدمايي لا يقرب الشر ولا يحبه، وهو فوق الجميع ولكنه أناب عددًا من الملائكة الأثريين بعض الصلاحيات التي يمارسونها على العالم المفطور، وهم مبعث قوة وسبب الطهارة فلقد خلقهم الرب بمجرد نطق أسمائهم وهم يعيشون في عالم الأنوار ويترفعون عما عليه البشر، وعالمهم عالم خلود وينفذون وصايا الحي العظيم وتعاليمه، وهؤلاء الملائكة لهم أسماء يعرفها المندائيون.

وللمندائيون مُثُل عليا يؤمنون بها ولا يؤمنون بالخرافات والأساطير، وتمثل طقوسهم مُثُلاً عليا تتصل بالسلوك الروحاني، وطقوسهم وصلواتهم مطولة تميل ميلاً شديدًا لطهارة القلب ونقاء النشماثا؛ لذلك يعتقدون أنهم أقرب للسماء وأن طهارتهم قريبة من طهارة المخلوقات المعصومة من الخطأ التي تسكن عالم الأنوار، لذلك نجدهم يحفظون الأمانة ويتجنبون الكذب والقتل والزنا، ولكن لكل قاعدة شواذ كما يُقال).

▪ تعقيب:

صحيح أن الباحثة ليدي دراور قد عاشت التجربة حية وعن قرب وقد واصلت الدراسة والبحث على مدى خمسة وعشرين عامًا دون كلل أو ملل ، وحاولت جاهدة أن تنقل نقلاً مباشرًا ما تشاهده وتسمعه ، ومن خلال مناقشاتها اليومية مع رجال الدين وقراءتها للكتب الدينية بالتعاون مع رجال الدين ، ولكن لكونها غير مندائية هنا الشعور والإحساس ومواجد القلب والإيمان الحقيقي قد يختلف. وهم ، وأقصد رجال الدين أحيانًا يجاملونها فيقولون لنا صلة وثيقة بالدين المسيحي ويذكرون لها شعيرة التعميد ، وتعميد يوحنا المعمدان للسيد المسيح ، وأمورًا أخرى ، لكنهم قد لا يتفقون مع الفكر المسيحي بأن عيسى ابن الله أو أنه يجسد بهيئة الله ، وأن يهيا يهانا (يوحنا المعمدان) فعلاً هو خاتم أنبيائهم.

أما الملائكة الأثريون ففعلاً لهم قدسيتهم وهم خالدون في عالم الأنوار **(كلهم لُطَفاءُ طيِّبون ، وحُكَماءَ صادقون ، لا إساءةَ فيهم ولاخداع. بَعضُهُم يَحلُّ في منازلِ بعض لا يُخطئون ، ولا بعضٌ إلى بعضٍ يُسيئون. مُعزَّزون مُكرّمون. كمثْل أهدابِ العَينِ مُتَشابِهونْ. نَواياهُم بعضٌ لبعضٍ مكشوفة ، وأخبارُ ما تَقَدَّمَ وما تَأَخَّرَ لدَيهِم مَعروفةْ. يُنير بَعضُهم بَعضًا ، ويُعَطِّرُ بَعضُهم بَعضًا ، ويَمدّون الكشطا بعضُهم إلى بعض. هُم بمشيئة الله خالدون ، لا زَوال لهم ولا يَشيخونْ ، ولايتوجّعون ولا يَضعُفون. ثيابُهُم أنقى ، وأكاليلُهُم أبقى ، وأولادهم أتقى. لا يجوعونَ ولا يعَطَشون ، ولا يحَترّون ولا يَبرَدون ، ولا يُساءُ إليهم ولا يَغضَبون. لا خُبثَ في أشجارهم ، ولا مرارةَ في أثمارهم ، ولا ذُبولَ في أزهارهم. مَواقعُهُم سامية وبحارُهُم هادية ، ومياهُهُم جاريةْ... أعذَبَ من الحَليبِ وأبَرد. لا يذوقُ شاربُها مَوتًا ، ولا يَسمعُ للحُزنِ صَوتًا. أعوامُهُم لاعَدَّ لها ، وحياتُهُم لا كَيلَ لها. فرحونَ مُبتَهجونْ ، بخطى سريعة ينطَلقون ، وفي أرض آيرَ البيضاءَ يطيرون ، حيثُ الضِّياء التَّام لا غروبَ ولا إضلام ، وجوهُهُم من نور. شفَّافونَ كالبلور. جميعُهُم خاشعونْ ، لله يُسبّحون).**

فهل رأيتم وصفًا للملائكة أدقَّ وأصدق من هذا الوصف الذي يصف به كتاب (الكنزا ربا) الملائكة الأثريين.

أما عن الخرافات والأساطير: فهناك الخرافة والأسطورة كما يسميها العلمانيون أو الماديون، وهناك المعجزات أو الخوارق كما يسميها الروحانيون، والأمثلة كثيرة وفي كل الأديان، وأحياناً يسمونها ميثولوجيا أي علم الأساطير، وهناك الكثير من الملاحم لكثيرٍ من الشعوب يتباهون بها ويعتبرونها من التراث الخالد والفرق بين الملحمة والأسطورة أن الملحمة أبطالها من البشر، أما الأسطورة أبطالها من الآلهة.

أما ما ذكرته ليدي دراور عن الزواج من الأديان الأخرى ففعلاً المندائي الصحيح يجب أن يكون من أبوين مندائيين ومتزوج/ متزوجة من مندائي/ مندائية.

إن الهجرة يا سيدتي ليدي دراور يرحمك الله قد فرضت على المندائيين بعض المفاهيم، وأجبر البعض بسبب هذه الظروف القسرية على الزواج من أديان موحدة أخرى وكثير منهم يرغبون في العودة لدينهم ولحد الآن لا توجد حلول لهذه الحالات.

• • • •

- بوسيه:

إن شعائر التعميد كانت منتشرة بين نحل كثيرة لا نعرف كيف انبثقت كلٌّ منها، لقد مارسها الكاشيون كطهارة كما يفعل الصابئون.

- أولبري:

إن الصابئة المندائيين في جنوب العراق هم أصل معمدي الآباء المسيحيين الأوائل ، والكُتَّاب الربانيين الذين حصلوا على اسم المعمدين من إجراء تطهيرهم المستمر بالماء الجاري كانوا يسمون بالآرامية بالصابئين المشتق من الفعل الآرامي صبأ بمعنى يغطس بالماء أي يتعمد.

كذلك قال في اللغة المندائية إنها أسهل اللهجات الآرامية القديمة وأكثرها مرونة صوتية وأقلها تأثرًا باللغات الأجنبية اليونانية ؛ وذلك بسبب عزلتها وانزوائها ، كما أن المندائية ما زالت لغة الأدب مما يسهل دراستها ومقارنتها باللهجات الآرامية القديمة المندثرة والحية معًا.

▪ تعقيب:

لقد كان يهيا يهانا (يوحنا المعمدان) يعمد الناس على ضفاف نهر الأردن ، وكانت أقوام عديدة تسكن في حوض البحر الميت أو على ضفاف نهر الأردن ، منهم المندائيون ، ولسنا متأكدين إن كان النبي يوحنا المعمدان يعمد الصابئة فقط أو أي إنسان يرغب بالتعميد ، ولما يوحنا المعمدان عمد السيد المسيح فطبيعي أن يعمد الآباء الأوائل تلاميذ المسيح وأحباره ، أما عن جزالة العبارة وقوتها في الأدب المندائي ، فهذا البروفسور ليدز بارسكي يشهد حين قال:

أي أدباء عظماء كتبوا هذه الأسفار المندائية.

أما عن كلمة صابئة ، فالمسلمون يدَّعون أنها من كلمة صبأ العربية ، ويقول المندائيون أنها من الفعل الآرامي صبأ ، وباعتقادي لا هذا صحيح ولا ذاك صحيح ، والصحيح نحن المندائيون.

- وليم شميث:

باحث ألماني الأصل ، تخصص في دراسة القبائل البدائية ومعتقداتها ، يقول: (إن العرب كانوا بالأصل موحدين ، ثم تركوا التوحيد وأشركوا وعبدوا الأوثان ، ولكن الإسلام أعادهم للتوحيد على يد النبي محمد (ص) الذي نشر الإسلام في أطراف الجزيرة ، أي نشر التوحيد وحطم عبادة الأصنام ، والصابئة المندائيون قد سبقوا المسيحية والإسلام بالتوحيد).

▪ تعقيب:

العرب في شبه الجزيرة العربية كانوا يعيشون حياة البداوة ، والبدوي يريد شيئًا يلمسه ويراه ويحس به ليقتنع ، فرغم أنهم يؤمنون بوجود الله ولكنهم أوجدوا الأصنام كواسطة ملموسة يتشفعون بها لله زلفى وهم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع ، وكان كثير من الخطباء والشعراء يدركون ذلك ، وكان الأحناف والمندائيون يعلمون علم اليقين بوحدانية رب العالمين.

obeikan.com

- رايت:

(إن استقلال الصابئة المندائيين باللغة الدينية والكتابة الأبجدية قد اشتركوا مع أديان أخرى في شعائر وطقوس كثيرة، ولا يعرف دين من الأديان لا يوجد فيه تشابه مع الطقوس المندائية، فهم يشبهون اليهود والمسيحيين والمسلمين، كما يشبهون الفلاسفة والمذاهب العقلانية في تفسير الموجود والموجودات، وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع كما يقول العقاد فيهم).

▪ تعقيب:

التشابه في الشعائر والطقوس موجود في كثير من الأديان، فالمندائيون يشبهون اليهود في المحرمات ويشبهون الإسلام في الوضوء ويشبهون المسيحيين في التعميد والوصايا والتوحيد والمحرمات وأمور كثيرة أخرى، وإن الشعائر والطقوس هي التي تميِّز دينًا عن الدين الآخر.

وأذكر في أحدث زياراتي للهند وحضوري زواج ابن رئيس الأكاديمية الفنية، وكان والده مهراجا، أي من الأغنياء، شاهدت أن لباسهم وطقوسهم مشابهة لطقوس المندائيين، كذلك عندما زرت الإخوة الإيزيديين في شمال العراق، وجدت هناك نوعًا من التشابه، وحدثني أحد أقربائي من أهل إيران أن الطقوس الزرادشية تشبه إلى حد بعيد طقوس المندائيين في إيران والعراق.

- سفولسون:

ذكرت الباحثة الليدي دراور في كتابها "الصابئة المندائيون" ترجمة طيبيٍّ الذكر غضبان الرومي ونعيم بدوي ، أن العالم الدكتور سفولسون قد أعطى في كتابه اعتبارًا وقيمة خاصة للصابئة المندائيين وخاصة الحرانيين من خلال علمهم وثقافتهم وعملهم في بلاط الخلفاء في العصر العباسي من خلال التراجم في اللغة العربية التي قام بنقلها الصابئة المندائيون في عاصمة الخلفاء العباسيين بغداد.

لقد كان العلماء والأدباء والمترجمون المندائيون زينة الحضارة العربية ، ولقد ساعدوا على تأسيس شهرتها ، ويذكر أن الله سبحانه وتعالى أنزل على بني شيت (شيتل) خمسين صفحة من (الكنزا ربا) (الكنز العظيم) ، وهو أول مَن بنى الكعبة بالطين والحجر الأسود ومنه أُخذت الشريعة ، وهو هبة من هبات الحي العظيم ، ومن أولاده صابي وإليه تنتسب الصابئة ، وهم علماء وأدباء وكتبة ذلك الزمان.

▪ تعقيب:

ظهر في مدينة حران شمال العراق ، عدد كبير من العلماء والأدباء والكتبة والمترجمون مثل آل قرة، وآل صابي وأولادهم وأحفادهم، قدموا خدمات جليلة للنهضة العربية في العصر العباسي في مراحل ازدهاره في زمن الرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، والمتوكل ، في علوم الفلك ، والطب ، والهندسة ، والرياضيات ، والأدب ، والرسائل ، والترجمة ، ونقلوا الحضارة الإغريقية ، والرومانية، والفارسية، وغيرها إلى اللغة العربية بمهارة وإتقان.

- البابا بولس الثاني (يوحنا):

لقد استقبل البابا بولس الثاني وفدًا يمثل المجلس الروحاني الأعلى للصابئة المندائيين عام ١٩٩٥ وألقى بهم كلمة قيمة، رحب بهم أجمل ترحيب قائلاً:

(هناك كثير من نقاط اللقاء بين المندائيين والمسيحيين ، وأنهم يؤمنون بالرب الواحد خالق الكون ، وأن التقديس الكبير الذي تكنونه إلى يوحنا المعمدان والشرف الذي تتمسكون به بشخصية السيد المسيح (ابنة خالة يوحنا المعمدان) هو سبب سروركم بأن تدعونا أولاد الخالة ، إذن أنتم أقارب البابا. إن السيد المسيح عندما عُمِّد من قِبَل يوحنا المعمدان صهرت روح القدس بهيئة حمامة على نهر الأردن ، أنا سعيد بمعرفتكم وباللقاء بكم وأرجو أن يستمر الحوار والتعاون).

ولكن كما يذكر الباحث المندائي المهندس القدير حامد نزال السعودي في كتابه "حقيقة الصابئة المندائيين" ، أن المندائيين بعد ذلك لم يديموا هذه الصلة ولم يكرروا هذه الزيارة ؛ بسبب الأحداث الجسام التي ألَّمت بالوطن الأم العراق ، وأصبح واجبًا على الجمعيات المندائية في بلدان المهجر إدامة هذه العلاقة.

▪ تعقيب:

حدثني الريش أمة عبد الله الكنزي برا نجم السبتي ، بعد هذه الزيارة أنه قلَّد البابا بولس الثاني قلادة ثمينة تحمل الدرابشا صنعها الصاغة المندائيون في بغداد قائلاً له: (إن يوحنا المعمدان قد عمد السيد المسيح وأنا ألبسك قلادة الدرفش ؛ لنوثق العلاقة بيننا وبينكم يا أولاد الخالة).

- بـراندن:

(إن شعيرة التعميد بالماء الجاري ، وهي شعيرة مندائية بامتياز قد مارسها كثيرون من النِحل والأديان كما يمارسها الصابئون).

• • • •

- فراوسهايدة:

بروفسور هولندي متخصص في الديانات طبع موسوعته عام ١٩٣٤م وأعطى تعريفاً للكلمة سيبا أو شيبا المذكورة في قائمة جنسيس للديانات والأقوام.

(مملكة شيبا) كانت تعود للميديين شرق البحر الأحمر ، وأن شعب هذه المملكة كانوا يدعون بالصابئة ، والميديون هم سكان جبال ميديا ، قرب مدينة حران التي سكنها الصابئة المندائيون لفترة طويلة من الزمان.

obeikan.com

- بورن باكلي:

تعتبر هذه الباحثة القديرة النرويجية الأصل الأمريكية الجنسية، الوريثة المقتدرة للباحثة الإنجليزية الليدي دراور مؤلفة كتاب "الصابئة المندائيون".

وهذه الكاتبة حذت حذو زميلتها دراور بأن عايشت المندائيين في أماكن وجودهم في العراق وإيران، واختلطت بهم وكسبت ودهم وثقتهم، وخاصة صابئة إيران، مما سهل عليها معرفتهم عن قُرب وفهم طقوسهم وشعائرهم وقضاياهم الاجتماعية ومعرفة لغتهم.

ولهذه الكاتبة الناشطة عدة كتب ومقالات مهمة نشرتها في مجلة نوفوم العالمية، وفي مجلة المتحف الجيكية عام ١٩٩٧ وكذلك في مجلة الأديان الصادرة عن جامعة شيكاغو عام ١٩٩٩ ولها كتاب مهم بعنوان (المندائيون نصوص موقرة وشعب معاصر) نشرته جامعة أكسفورد في نيويورك عام ٢٠٠٢م.

الدين المندائي غالبًا ما يوصف بالغنوصية، وممكن أن يكون أصل المندائيين متأثرًا بالمنطقة الأردنية الفلسطينية.

إن النصوص المندائية مثل اليردنا (الماء الجاري) والكشطا (الحق أو العهد)، والمندا (المعرفة) كلها تشير إلى احتمالية غربية أصول المندائيين، تمامًا كهجرة المندائيين من سهل نهر الأردن باتجاه أهوار العراق وإيران التي ما زالت حتى الآن موضع نقاش، وفي القرن الثاني والثالث هاجر المندائيون من حوض نهر الأردن باتجاه منطقة المياه البهية كما يذكر الباحث كورت رودولف.

وفي كل الأحوال وصل المندائيون إلى العراق وإيران قادمين من مدينة حران قبل وصول المسيحية المبكرة، وتمكن المندائيون من أن ينسجموا مع إخوانهم المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد، واستفادوا من التسامح، وعلينا

أن نتابع النصوص التي وجدت مؤخرًا في نجع حمادي ، هل هي نصوص غنوصية قبطية أم نصوص مندائية.

ويذكر كتاب حران كويثا المندائي أن المندائيين لم يهاجروا من فلسطين بسبب خراب القدس ومعبدها سنة ٧٠م. ويعتبر الصابئة المندائيون أن مريم واسمها المندائي ميرياي أم عيسى (ع) مندائية وأن نبي الله عيسى قد انحرف عن إرثه المندائي بعد أن عمده نبي الله يحيى بن زكريا ، تؤكد الوثائق المندائية عن أن الأم شلاما بنت قدره هي الأولى في الكهانة، والناسخ الأقدم لكتاب (الكنزا ربا) الأيسر الخاص بصعود نشماثا إلى عالم الأنوار).

كما كتبت الباحثة باكلي كتابها (العالم المندائي) في الجزء الأول منه عن معاناة المندائيين المستمرة خلال حياتهم ، وأشارت بدور الناسخين من أمثال يحيى بن بهرام الكاهن.

تقول الباحثة في أحد بحوثها المهمة:

(يشكل المندائيون من كلمة مندا الآرامية أي المعرفة المجموعة الوحيدة للغنوصيين الذين ما زالوا على قيد الحياة ، أما الآخرين من الغنوصيين فلقد اندثروا وذهبت ريحهم ؛ بسبب نمو المسيحية ، لكن المندائيين أصروا وحدهم على البقاء ؛ وذلك لأنهم يملكون الكثير من الكتب الدينية التي تحوي نصوصًا شاملة وكاملة للدين المندائي).

وحاليًا تبذل جهود من قِبَل الجاليات المندائية في السويد وأستراليا لإنقاذ اللغة المندائية.

وللباحثة بحوث كثيرة ومتعددة منها (من بغداد إلى كاليفورنيا) كما التقت الباحثة بالشاعرة المندائية الموهوبة العراقية الأصل لميعة عباس عمارة ، والباحثة من المعجبين بشعر لميعه وقد ترجمت شيئًا منه إلى اللغة الإنجليزية.

وفى أحيان كثيرة تلصق صفة الغنوصية بالمندائيين ، لقد لاحظ الباحث "كورت رودلف" بواقعية أنه لا يوجد مذهب غنوصي مشترك ذو صلة بالتعميد ؛ لأن المصبتا المندائية يجب أن تترجم وفقًا لعلم الكونيات وعلم أصل الجنس البشري وعلم اللاهوت المندائي ، وعن عالم النور ؛ ولهذا فإن كثرة الارتماس بالماء أي تكرار الصباغة تعني تحضيرات وتمرينات وطهارة الدخول لذلك العالم.

ويحتم على المندائي قبل اجراء طقس التعميد أن يلبس (الرستة) ، وهي ملابس بيضاء متشبهًا بعالم النور ، ويجب أن يجرى التعميد بالماء الجاري في بحر أو في قناة مائية فيها ماء حي ، وحاليًا تطورت بعض الأمور فيجرى في حوض خاص له مدخل ومخرج للماء أيام الآحاد أو الأعياد وخاصة البنجة ودهفة ديمانة ، حيث يجرى تعميد جماعي للمندائيين.

وبشكل عام فإن التعميد الجماعي له هيبة ووقار وخشوع حيث يصطف المندائيون رجالاً ونساءً في نسق جميل على حافة النهر بملابسهم البيضاء الأنيقة الموحدة كاملة (سروال وقميص وعمامة ونصيفة وهميانة) ووضع في إصبعه كليلة الآس ، وقد تم نصب الدرافشا (علم يهانا) ، ويبدأ رجل الدين بمراسم الصباغة وفق سياقات لا يحيد عنها ، على أن تحضر كل المستلزمات الضرورية مسبقًا من أوانٍ وقناني ونبات الآس رمز الحياة ، والطين والملح والسمسم ووعاء طيني للبخور ، وأمور أخرى.

▪ تعقيب:

المندائيون كما تدل الآثار والقحوف والمخطوطات القديمة من بلاد ما بين النهرين ، وعندما ظهر نبي الله إبراهيم الخليل في أور ، وقال إنه نبي مرسل لكم أيها المندائيون لم يصدقوا به في أول الأمر ؛ لأنه إنسان مثلهم وليس ملاكًا ، والنبي يجب أن يكون ملاكًا لا يتوجع ولا يشيخ ولا يأكل ويشرب ولا يموت ، ثم حصل أن قطع نبي الله إبراهيم غلفته بسبب المرض فانفضوا عنه ، فقرر

الهجرة مع زوجته سارة وتبعه رهط منهم إلى حران ، ومن حران إلى فلسطين وبعد ذلك لأرض الكنانة ، ويقول بعد ذلك عاد عدد منهم إلى منطقة المياه البهية في جنوب العراق وجنوب غرب إيران. وهذا يعني أن أصل المندائيين بلاد ما بين النهرين وربما هم بقايا السومريين أو السومريين منهم.

وعدد من الباحثين يقول إن سفينة نوح بعد الطوفان رست قرب مدينة حران ، وأن سام بن نوح وزوجته نهوريتا أسسا الدارة المندائية ، وعندما بنى نبي الله إبراهيم مدينة حران تجمع المندائيون في حران ، ومنها حصلت هجرة نحو الغرب إلى فلسطين ونحو الجنوب إلى العراق وإيران قرب مصبات مجاري الأنهار.

وعدد من الباحثين يذكر أن سبب معيشتهم في الأهوار جاء عندما بدأت الفتوحات الإسلامية اندفعوا إلى الأهوار بزوارقهم التي يصنعونها بأيديهم لحماية أنفسهم ودينهم وهم يعلمون أن المسلمين أهل صحراء يخافون الخوض في المياه البهية ؛ لأنهم يملكون الإبل والخيول ولا يملكون الزوارق... ولكنها اجتهادات وآراء ينقصها التوثيق الدقيق والأدلة الدامغة.

أما عن معاناة المندائيين فقد تعرضوا عبر تاريخهم إلى مذابح كثيرة وكبيرة في إيران والعراق وفلسطين ، كانت سببًا لهجراتهم عبر التاريخ وآخرها هجرتهم من إيران ؛ بسبب التطرف الديني في إيران ، وهجرتهم من العراق بعد الاحتلال كذلك بسبب التطرف الديني وغياب القانون.

أما عن الصباغة في الماء الجاري في الأنهار ، فالصابئة المندائيون في العراق طوروا هذه الشعيرة وبنوا أحواضًا نظامية يدخل الماء فيها ويخرج بنظام هندسي محسوب ، تقبَّله عدد من رجال الدين ورفضه آخرون ؛ بسبب أن هنالك نصًّا في كتاب (ترسر ألف شيالة) يقول لا تبنوا سدودًا في طريق الماء.

العالم تطور وعلينا مواكبة العصر ، وإعطاء أهمية للطقس خاصةً في الدول الإسكندنافية وهولندا مثلاً؛ لأن فصل الشتاء في هذه البلدان طويل ومتجمد، ولا يمكن الصباغة في مجاري الأنهار.

أما عن الغنوصية فإنها تؤمن بأن الله يُعرَف بالحس والشعور ومواجد القلب ، ولا تؤمن بوجود وسيط بين الله وعباده ، أما المندائية فتؤمن أن الحي العظيم (الله) يُعرَف بالشعور والإحساس ومواجد القلب وبالعقل والمعرفة ، وأن الملائكة الأثريين وسطاء بين البشر وخالقهم.

أما عن اللغة المندائية وتعليمها فلقد جرت محاولات عديدة خاصةً في بغداد وتم تأسيس مدرسة مندائية ومناهج تعليمية ، ونجحت عدد من الدورات وتعلم كثير من الدارسين ، ولكن بسبب عدم الاستمرار وبسبب عدم التحدث باللغة المندائية في البيت وبين المندائيين سرعان ما ينسونها ، واللغة العربية هي الغالبة لأن الحاجة أم الاختراع، وكنا في العراق بحاجة إلى اللغة العربية فأتقناها ونبغ بها الكثير من الشعراء والأدباء ، وحاليًا تعلمنا اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، والسويدية وغيرها ؛ لأننا نحتاجها في حياتنا اليومية وفي العمل.

- سينازي كوندوز:

باحث تركي ألف كتاب (معرفة الحياة):

(يؤكد الكتاب أن المندائيين ينتمون إلى فلسطين وما جاورها ، وأن المندائيين عاشوا في الغرب قبل أن يهاجروا إلى بلاد بابل ، وأن المندائيين سبقوا المسيحيين ، وأنهم كانوا على اتصال وثيق بالنبطية ، التي أخذ منها المندائيون أبجديتهم ، لقد اضطهد اليهود المندائيين ، فقُتل منهم خلق كثير ، وهاجر خلق كثير إلى الشرق تحت حماية البارثيين.

لقد هاجر المندائيون إلى بلاد ما بين النهرين على شكل جماعات ، ونزلوا في حران ، ثم واصل عدد منهم الهجرة باتجاه جنوب العراق حيث وفرة المياه ، واستقر هناك مع مطلع القرن الثاني الميلادي كما يؤكد الباحث ، وهناك عايشوا ثقافات عديدة منها البابلية ، والفارسية ، والنسطورية المسيحية أثروا فيها وتأثروا بها ، ولقد عاشوا في زمن البارثيين بحرية ، فبنوا منادي العبادة ، ولكن عندما تغلب الساسانيون على البارثيين ، انتهى توسعهم ، وانتهت حرياتهم فانغلقوا على أنفسهم.

وبعد الفتح الإسلامي عومل المندائيون على أنهم من أهل الكتاب ؛ نظرًا لذكرهم في القرآن الكريم وعاشوا متآخين مع المسلمين والمسيحيين.

ويؤكد الكاتب أنه كلما ظهرت ديانة اضطهد أتباعها المندائيين ، وهذا يفسر لنا أسباب الهجرات المستمرة ، وبالتالي قلة عددهم كما هو الحال اليوم).

▪ تعقيب:

لقد بيَّنا أن أسباب الهجرة كثيرة منها دينية ومنها سياسية ومنها اقتصادية... إلخ.

- الموسوعة البريطانية الحديثة:

(التعاليم المندائية لا تختلف عن بقية التعاليم الأخرى، فقد بقيت هي الأخرى أزمنة طويلة محفوظة في الصدور، وبقي منها ما هو أصيل ودخلها ما هو دخيل عبر الأجيال حتى دونت بعد اكتشاف الكتابة باللغة المندائية التي هي إحدى اللهجات الآرامية.

تبدأ السنة المندائية وهي سنة الخليقة بداية شهر شباط، وأشهرهم شبيهة بالأشهر العربية، والاثنان شبيهان بالأشهر البابلية، وهم الذين وضعوا أصح وأوضح تقويم عرفة الإنسان.

كما يعتقد المندائيون: لقد قام آدم (ع) يعلِّم ذريته ويتقل لهم الوصايا كلها من هيي قدمايي ربهم العظيم في علاه، والتزم المندائي بما قاله له ربه في علاه، بكل التعاليم والوصايا آملاً بالحياة الثانية في عالم الأنوار بأن يعود إلى الدموثا (المثيل)، وهذه الأمنية يتمناها كل مندائي مؤمن ويحفظها في ضميره على مدى الأجيال ينقلها إلى أبنائه).

▪ تعقيب:

إن عدد الباحثين والمستشرقين الأجانب كثير جدًا، وإن معظمهم يكتبون بعد إطلاع دقيق ومعايشة ميدانية ويشاهدون بأعينهم ويسمعون بآذانهم؛ ولهذا جاءت بحوثهم ودراساتهم أكثر دقة وصوابًا وقريبة من الحقيقة والواقع، بينما نجد أن كتابات الأولين جاءت تكرارًا لما كتبه مَن سبقوهم دون مشاهدة أو معايشة ودون معرفة اللغة المندائية وقراءة الكتب الدينية.

وأذكر أني مرة قرأت في مقالٍ أن جامعة أكسفورد قد كلفت طالبين من طلابها لإجراء بحثًا تفصيليًا عن الجمل، أحدهم أمريكي والثاني ألماني، فراح الأمريكي إلى جمع عدد من المصادر عن الجمل وجلس في مكتبه يقرأ ويفهم

ما يكتبه عن الجمل ، بينما الألماني شد الرحال إلى الجزيرة العربية ؛ ليعايش الجمل ورعاة الجمل ، ويتعلم عاداته وطباعه ، وليصفه وصفًا دقيقًا واقعيًا ، فجاء بحثه أمينًا ، دقيقًا ، حقيقيًا ، صادقًا ، وهذا هو سر تفوق الباحثين الأجانب والمستشرقين في كتاباتهم وبحوثهم وتوثيقهم.

obeikan.com